تطهير الاعتقاد
عــن
أدران الإلحاد

تأليف

الإمام المحدث السلفي الشهير بالأمير

محمد بن إسماعيل اليمني الصنعاني

١٠٩٩ هـ - ١١٨٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال الإمام العلامة الحبر الفهامة الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى][1]

[مقدمة الكتاب]

الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد، حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد، فلا يتخذون له ندًّا ولا يدعون معه أحدًا، ولا يتكلون إلا عليه، ولا يفزعون في كل حال إلا إليه، ولا يدعونه بغير أسمائه الحسنى، ولا يتوصلون إليه بالشفعاء، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له[2] ربًّا ومعبودًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي أمره أن يقول: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وكفى بالله شهيدًا. صلّى الله عليه وعلى آله والتابعين له في السلامة من العيوب، وتطهير القلوب؛ عن اعتقاد كل شين يشوب.

---

(١) ما بين القوسين من. خ.

(٢) لفظ "وحده لا شريك له" من. خ.

وبعد: فهذا (تطهير الاعتقاد، عن أدران الإِلحاد) وجب عليَّ تأليفه، وتعين عليَّ ترصيفه، لما رأيته، وعلمته يقينًا[١] من اتخاذ العباد الأنداد[٢] في الأمصار، والقرى وجميع البلاد، من اليمن، والشام، ومصر، ونجد، وتهامة، وجميع ديار الإسلام، وهو الاعتقاد في القبور، وفي الأحياء، ممن يدعي العلم بالمغيبات، والمكاشفات، وهو من أهل الفجور، لا يحضر للمسلمين مسجدًا، ولا يرى لله راكعًا، ولا ساجدًا، ولا يعرف السنة، ولا الكتاب، ولا يهاب البعث، ولا الحساب.

فوجب عليَّ أن أنكر ما أوجب الله إنكاره، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره.

فاعلم أن هاهنا أصولاً، هي من قواعد الدين، ومن أهم ما تجب معرفته على الموحدين.

---

(١) لفظ "يقيناً" من خ.

(٢) جمع ند وهو المماثل المكافئ (الناشر).

الأصل الأول

كل ما في القرآن حق

إنه قد علم من ضرورة الدين: أن كل ما في القرآن فهو حق لا باطل، وصدق لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلم لا جهالة، ويقين لا شك فيه.

فهذا الأصل، أصل لا يتم إسلام أحد، ولا إيمانه إلا بالإقرار به، وهذا مجمع عليه لا خلاف فيه.

الأصل الثاني

الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله بتوحيد العبادة

أن رسل الله وأنبياءه - من أولهم إلى آخرهم - بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] ﴿ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾ [هود: ٢٦]، ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣].

وهذا هو الذي تضمنه قول "لا إله إلا اللّه" فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة، واعتقاد معناها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لما يعبد من دونه، والبراءة منه. وهذا الأصل لا مرية[1] فيما تضمنه، ولا شك فيه، وفي أنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه ويحققه.

الأصل الثالث

أقسام التوحيد

أن التوحيد قسمان:

القسم الأول: توحيد الربوبية، والخالقية، والرازقية، ونحوه. ومعناه: أن الله وحده، هو الخالق للعالم، وهو الرب لهم، والرازق لهم.

وهذا لا ينكره المشركون، ولا يجعلون لله فيه شريكًا، بل هم مقرون به، كما سيأتي في الأصل الرابع.

والقسم الثاني: توحيد العبادة. ومعناه: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات، الآتي بيانها. فهذا هو الذي جعلوا لله فيه الشركاء. ولفظ "الشريك" يشعر بالإقرار بالله تعالى.

فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول، ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم في خطاب المشركين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(١) أي لا شك فيه ولا ارتياب (الناشر).

وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ [إبراهيم: ١٠]. و﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ [فاطر: ٣]. ونهيهم عن شرك العبادة؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦] - أي قائلين لأممهم: أن اعبدوا اللّه. فأفاد بقوله ﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾ [النحل: ٣٦] أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل وتبعث إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأن اللّه هو الخالق للعالم، وأنه رب السماوات والأرض، فإنهم مقرون بهذا؛ ولهذا لم ترد الآيات فيه في الغالب إلا بصيغة استفهام التقرير، نحو: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠] استفهام تقرير لهم؛ لأنهم به مقرون.

وبهذا تعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان[1] ولم يعبدوها، ولم يتخذوا المسيح وأمه، ولم يتخذوا الملائكة شركاء للّه تعالى، لأجل أنهم أشركوهم في خلق السماوات والأرض، وفي خلق

(١) الصنم: ما كان منحوتًا على صورة، والوثن ما كان موضوعًا على غير ذلك وقد يسمى الصنم وثنًا..

أنفسهم، بل اتخذوهم؛ لأنهم يقربونهم[١] إلى الله زلفى، كما قالوه، فهم مقرون بالله في نفس كلمات كفرهم، وأنهم شفعاء عند الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركا، ونزه نفسه عنه؛ لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكيف يثبتون شفعاء لهم، لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها، ولا يغنون عنهم من الله شيئا؟

الأصل الرابع

المشركون مقرون بأن الله خالقهم

إن المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم مقرون أن الله خالقهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩] وأنه الرزاق الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض،

---

(١) أي يزعمون أنهم يقربونهم.

وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنين: ٨٤ - ٨٩][1] وهذا فرعون مع غلوه في كفره، ودعواه أقبح دعوى، ونطقه بالكلمة الشنعاء، يقول الله في حقه، حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال إبليس: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر: ١٦]، وقال ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر: ٣٩] وقال: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ ﴾ [الحجر: ٣٧]... وكل مشرك مقر بأن الله خالقه، وخالق السماوات والأرض وربهن[2] ورب ما فيهن ورازقهم، ولهذا احتج عليهم الرسل

---

(١) فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

(٢) لفظ "هن" في كلمة ربهن وفي كلمة "فيهن" من. خ وعبارة المطبوعة " وربهما ورب ما فيهما".

بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧]. وبقولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٣٧]، والمشركون مقرون بذلك لا ينكرونه.

الأصل الخامس

أساس العبادة توحيد الله

إن العبادة[١] أقصى باب الخضوع والتذلل، ولم تستعمل إلا في الخضوع لله؛ لأنه مولى أعظم النعم، وكان لذلك حقيقاً بأقصى غاية الخضوع كما في (الكشاف)[٢] ثم إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله الذي تفيده كلمته، التي إليها دعا جميع الرسل، وهي قول (لا إله إلا الله).

والمراد اعتقاد معناها، والعمل بمقتضاها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كل معبود دونه.

وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنهم أهل اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥].

---

(١) معنى العبادة: الخضوع المطلق له، وتوجيه العبادة إليه وحده لا شريك له (الناشر).

(٢) في تفسير الآية الكريمة "إياك نعبد وإياك نستعين".

فصل

أنواع العبادة

إذا عرفت هذه الأصول، فاعلم: أن اللّٰه تعالى جعل العبادة له أنواعًا[١]

اعتقادية: وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك مما يجب من لوازم الإلهية.

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر، ولم ينطق بها: لم يحقن دمه، ولا ماله، وكان كإبليس فإنه يعتقد التوحيد، بل ويقر به، كما أسلفنا عنه، إلا أنه لم يمتثل أمر اللّٰه بالسجود[٢] فكفر، ومن نطق بها[٣] ولم يعتقد حقن ماله، ودمه، وحسابه على اللّٰه، وحكمه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام، والركوع، والسجود في الصلاة. ومنها الصوم، وأفعال الحج، والطواف.

---

(١) وذلك حسب جهتها إن كانت ترجع للاعتقاد، أو النطق، أو للبدن، أو للمال (الناشر).

(٢) لفظ "بالسجود" من. خ.

(٣) لفظ "بها" من. خ.

ومالية: كإخراج جزء من المال، امتثالاً لما أمر الله تعالى به. وأنواع الواجبات، والمندوبات في الأموال، والأبدان، والأفعال، والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها.

الرسل مبعوثون للدعوة إلى إفراد الله بالعبادة

وإذا تقررت هذه الأمور، فاعلم: أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه، إذ هم مقرون بذلك كما قررناه وكررناه. ولذا قالوا ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أي: لنفرده بالعبادة، ونخصه بها من دون آلهتنا فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا معه أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

وكانوا يقولون في تلبيتهم للحج: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك"، وكان يسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم عند قولهم "لا شريك لك" فيقول: "قد قد" أي[1] أفردوه جل

---

(١) "قد" الثانية ولفظ "أي" من خ وقد حصل خلل في المطبوعة بسقوطهما.

جلاله، لو تركوا قولهم: إلا شريكًا هو لك. فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى.

كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

فنفس اتخاذ الشركاء إقرار بالله تعالى، ولم يعبدوا الأنداد بالخضوع لهم والتقرب بالنذور والنحر لهم، إلا لاعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، وتشفع لهم لديه.

فأرسل الله الرسل تأمرهم[1] بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده. وهذا هو توحيد العبادة وقد كانوا مقرين - كما عرفت في الأصل الرابع - بتوحيد الربوبية وهو أن الله هو الخالق وحده والرازق وحده.

ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم وهو نوح عليه السلام[2] - إلى آخرهم - وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم[3] هو توحيد العبادة، ولذا تقول لهم الرسل ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ

---

(١) لفظ "هم" في تأمرهم من.خ.

(٢) ليس أول الرسل نوحا، بل آدم عليه السلام وإنما نوح أولهم بعد الطوفان أي من العصر الثاني للخليقة (الناشر).

(٣) قوله "ابن عبد الله" من.خ.

ٱللَّهَۖ ﴾ [هود: ٢٦]، ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد كان المشركون منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد ومنهم من يعبد أحجارًا ويهتف بها عند الشدائد، وهي في الأصل صور رجال صالحين كانوا يحبونهم، ويعتقدون فيهم فلما هلكوا صوروا صورهم تسليًا بها فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، ثم زاد الأمد طولاً، فعبدوا الأحجار.

ومنهم من يعبد المسيح ومنهم من يعبد الكواكب ويهتف بها عند الشدائد. فبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأن يفردوه بالعبادة. كما أفردوه بالربوبية... بربوبيته للسماوات والأرض وأن يفردوه بمعنى ومؤدى كلمة "لا إله إلا الله"، معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها وأن لا يدعوا مع الله أحدًا. وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾ [الرعد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾ [المائدة: ٢٣]، أي من شرط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفردوه بالتوكل، كما يجب أن يفردوه بالدعاء، والاستغفار.

وأمر الله عباده أن يقولوا: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"، ولا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرد العبادة لله تعالى، وإلا كان كاذبًا منهيًا عن أن يقول هذه

الكلمة، إذ معناها: نخصك بالعبادة ونفردك بها دون كل أحد، وهو معنى قوله: ﴿ فَإِيَّىَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١].

لما[1] عرف من علم البيان، أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي لا تعبدوا إلا اللّه، ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا إلا اللّه، ولا تتقوا[2] غيره كما في (الكشاف).

فإفراد اللّه تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له، والنداء في الشدائد، والرخاء لا يكون إلا للّه وحده، والاستغاثة، والاستعانة باللّه وحده، واللجوء إلى اللّه، والنذر، والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات: من الخضوع، والقيام تذللاً للّه تعالى، والركوع، والسجود، والطواف، والتجرد عن الثياب، والحلق، والتقصير، كله لا يكون إلا للّه عز وجل، ومن فعل شيئًا من ذلك لمخلوق حي، أو ميت، أو جماد، أو غيره فقد أشرك في العبادة، وصار من تفعل له هذه الأمور إلهًا لعابديه، سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو قبرًا، أو جنيًّا، أو حيًا، أو ميتًا، وصار العابد بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدًا لذلك المخلوق،

---

(١) "لما" باللام هو لفظ خ ووقع في المطبوعة "كما" بالكاف.

(٢) قوله: "إلا اللّه ولا تتقوا" من خ.

مشركًا بالله، وإن أقر بالله وعبده، فإِن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك، وعن وجوب سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم غنيمة.

قال الله تعالى: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ"[1][2] لا يقبل الله عملاً شورك فيه غيره، ولا يؤمن به من عبد معه غيره.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥).

(٢) أي في الحديث القدسي: وتمامه: ".... من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" الناشر.

فصل

الإقرار بالله لا يكفي في التوحيد

إذا تقرر عندك أن المشركين لم ينفعهم الإقرار بالله مع إشراكهم في العبادة، ولا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن عبادتهم، هي اعتقادهم فيهم: أنهم يضرون، وينفعون، وأنهم يقربونهم إلى الله زلفى، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى، فنحروا لهم النحائر، وطافوا بهم، ونذروا النذور عليهم، وقاموا متذللين، متواضعين في خدمتهم، وسجدوا لهم، ومع هذا كله، فهم مقرون لله بالربوبية، وأنه الخالق، ولكنهم لما أشركوا في عبادته، جعلهم مشركين، ولم يعتد بإقرارهم هذا، لأنه نافاه فعلهم.

فلم ينفعهم الإقرار بتوحيد الربوبية: فمن شأن من أقر لله تعالى بتوحيد الربوبية: أن يفرده بتوحيد العبادة، فإذا لم يفعل ذلك، فالإقرار باطل.

وقد عرفوا ذلك وهم في طبقات النار فقالوا: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] مع أنهم لم يسووهم به من كل وجه، ولا جعلوهم خالقين، ولا رازقين، لكنهم علموا وهم في قعر جهنم أن خلطهم الإقرار بذرة من ذرات الإشراك في توحيد العبادة صيرهم كمن سوى بين الأصنام وبين رب الأنام.

قال اللّه تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦] أي ما يقر أكثرهم في إقراره باللّه، وبأنه خلقه، وخلق السماوات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان.

بل سمى اللّه الرياء[1] في الطاعات شركًا، مع أن فاعل الطاعة ما قصد بها إلا اللّه تعالى، وإنما أراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس، فالمرائي عبد اللّه لا غيره، لكنه خلط عبادته بطلب المنزلة في قلوب الناس، فلم يقبل له عبادة، وسماها شركًا.

كما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"[2].

بل سمى اللّه التسمية بعبد الحارث شركًا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

فإنه أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث سمرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: "لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ - وَكَانَ لا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ - طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَقَالَ: لا يَعِيشُ لَكِ وَلَدٌ حَتَّى تُسَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ،

(١) وهو إظهار الطاعة بقصد كسب الثناء، والذكر الحسن من الناس. (الناشر).

(٢) سبق تخريجه في ص (١٧).

فَسَمَّتْهُ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الآيَاتِ"[١][٢] وسمى هذه التسمية شركًا، وكان إبليس تسمى بالحارث، والقصة في (الدر المنثور) وغيره[٣].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، برقم (٢٠١١٧)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، برقم (٣٠٧٧).

(٢) وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: (فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون).. (الأعراف- ١٦٠).

(٣) جزم ابن القيم في روضة المحبين ص ٢٨٩ طبعة مطبعة السعادة بمصر بأن المراد باللذين جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولاد آدم وحواء، وقال: ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل أن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه، وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك، وقد سلك هذا المسلك الحافظ ابن كثير في تفسيره وأطال الكلام في تعليل الروايات الواردة في أن المراد بقوله تعالى (فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما) غير آدم وحواء.

فصل

الاعتقاد في غير الله شرك

قد عرفت من هذا كله: أن من اعتقد في شجر أو حجر، أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع، أو يضر، أو أنه يقرب إلى الله، أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به، والتوسل به إلى الرب تعالى.

إلا ما ورد في حديث فيه مقال في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم(١) أو نحو ذلك - فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقده المشركون في الأوثان، فضلاً عمن ينذر بماله، وولده لميت، أو حي، أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من

---

(١) هو على كل تقدير من قبيل التوسل بالدعاء كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، قال (حديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني –من التوسل بدعائه - فإن الأعمى قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره فقال له: إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك، فقال: بل ادعه فأمره أن يتوضأ، ويصلي ركعتين ويقول: اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها. اللهم فشفعه في، فهذا التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا قال: "فشفعه في" فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه).

الله تعالى من الحاجات: من عافية مريضه أو قدوم غائبه، أو نيله لأي مطلب من المطالب، فإن هذا هو الشرك بعينه، الذي كان ويكون عليه عباد الأصنام.

والنذر بالمال للميت ونحوه، والنحر على القبر، والتوسل به، وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنًا، وصنمًا، وفعله القبوريون لما يسمونه وليًّا، وقبرًا ومشهدًا.

والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر، وسماها ماء، ما شرب إلا خمرًا، وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنه يأتي قوم يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، وصدق صلى الله عليه وسلم فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذا.

وأول من سمّى ما فيه غضب الله، وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر آدم عليه السلام: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]؛ فسمى الشجرة التي نهى الله تعالى آدم عن قربانها شجرة الخلد، جذبًا لطبعه إليها، وهزًّا لنشاطه إلى قربانها، وتدليسا عليه بالاسم الذي

اخترعه لها. كما يسمي إخوانه المقلدون له الحشيشة: بلقمة الراحة، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلمًا وعدوانًا أدبًا، فيقولون: أدب القتل، أدب السرقة، أدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب.

كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة، وفي بعضها إلى اسم السياقة، وفي بعضها أدب المكاييل والموازين. وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

وكذلك تسمية القبر مشهدًا، ومن يعتقدون فيه وليًّا لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت[1] ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها.

وكل قوم لهم رجل ينادونه.

فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلي..!

---

(١) قال ابن تيمية: وأما السفر إلى زيارة القبور فلا يجب بالنذر عند أحد منهم، لأنه ليس بطاعة (الناشر).

وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه

يقولون: يا زيلعي، يا ابن العجيل...

وأهل مكة وأهل الطائف: يا ابن العباس.

وأهل مصر: يا رفاعي، يا بدوي، والسادة البكرية.. وأهل الجبال: يا أبا طير...

وأهل اليمن: يا ابن علوان...

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم

ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية[1]:

أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود بئس ذلك من ود

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرة أهلت لغير الله جهرًا على عمد

وكم طائف حول القبور مقبلاً ويستلم الأركان منهن باليد

فإن قال: إنما نحرت لله، وذكرت اسم الله عليه.؟

فقل: إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم! فقل له: هذا النحر لغير الله، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد

---

(١) من قصيدة مدح بها المؤلف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وأشاد فيها بدعوته.

تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ أنت تعلم يقينًا: أنك ما أردت ذلك أصلاً، ولا أردت إلا الأول، ولا خرجت من بيتك إلا قصدًا له، ثم كذلك دعاؤهم له. فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب.

وقد يعتقدون في بعض فسقة الأحياء، وينادونه في الشدة والرخاء، وهو عاكف على القبائح والفضائح، لا يحضر حيث أمر الله عباده المؤمنين بالحضور هناك، ولا يحضر جمعة ولا جماعة ولا يعود مريضًا ولا يشيع جنازة، ولا يكتسب حلالا، ويضم إلى ذلك دعوى علم الغيب(١) ويجلب إليه إبليس جماعة قد عشش في قلوبهم، وباض فيها وفرخ، يصدقون بهتانه، ويعظمون شأنه ويجعلون هذا ندًّا لرب العالمين ومثلاً.

فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جهلت؟ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فإن قلتَ: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء، والفسقة، والخلعاء مشركين، كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم، قد حصل منهم ما حصل من أولئك، وساووهم في ذلك،

---

(١) دعوى "علم الغيب" وهو لفظ "خ" ووقع في المطبوعة "دعوى" التوكل وعلم الغيب.

بل زادوا عليهم[١] في الاعتقاد، والانقياد، والاستعباد فلا فرق بينهم.

فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى، ولا نجعل له ندًّا، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركًا!.

قلتُ: نعم (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)، لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإن تعظيمهم الأولياء ونحرهم النحائر لهم شرك. والله تعالى يقول: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ ﴾ [الكوثر: ٢] أي لا لغيره، كما يفيده تقديم الظرف.

ويقول تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وقد عرفت بما قدمناه قريبا أنه صلى الله عليه وسلم قد سمى الرياء شركًا، فكيف بما ذكرناه؟! فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم: هو عين ما فعله المشركون وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئًا، لأن فعلهم أكذبَ قولهم.

فإن قلتَ: هم جاهلون إنهم مشركون بما يفعلونه.

قلتُ: قد صرح الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر، وإن لم يقصد معناها[٢] وهذا دال على أنهم

---

(١) لفظ عليهم من "خ".

(٢) هذا مغالاة في الحكم، وأرى أنه لا يصح تكفير مسلم بشيء إلا بشيء مقصود له معتقدوه، مجاهر باتباعه (الناشر).

لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا ماهية التوحيد فصاروا حينئذ كفارًا كفرًا أصليًّا، فإن اللّه تعالى فرض على عباده إفراده بالعبادة ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٢] وإخلاصها له ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] الآية.

ومن نادى اللّه ليلاً ونهارًا، وسرًّا، وجهارًا، وخوفًا، وطمعًا، ثم نادى معه غيره، فقد أشرك في العبادة، فإن الدعاء من العبادة، وقد سماه اللّه تعالى عبادة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۞ ﴾ [غافر: ٦٠] بعد قوله: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

فإن قلت: فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم، والسلوك فيهم ما سلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في المشركين.

قلتُ: إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم[(١)] فقالوا: يجب أولاً دعاؤهم إلى التوحيد، وإبانة أن ما يعتقدونه ينفع ويضر، لا يغني عنهم من اللّه شيئًا وإنهم أمثالهم وأن هذا الاعتقاد منهم فيهم شرك، لا يتم الإيمان بما جاءت به الرسل إلا بتركه والتوبة منه، وإفراد التوحيد - اعتقادًا وعملاً - للّه وحده، وهذا واجب على العلماء، أي

(١) يوهم هذا وجود طائفة أخرى من أئمة العلم لا ترى ما تراه هذه الطائفة منهم وهو خلاف الحق والمسألة نصوص الوحي لا مسألة خلاف.

بيان أن ذلك الاعتقاد الذي تفرعت عنه النذور، والنحائر، والطواف بالقبور، شرك محرم، وأنه عين ما كان يفعله المشركون لأصنامهم، فإذا أبان العلماء ذلك للأئمة، والملوك وجب على الأئمة والملوك بعث دعاة إلى الناس يدعونهم إلى إخلاص التوحيد لله، فمن رجع وأقر حقن عليه دمه وماله وذراريه، ومن أصر فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله صلى الله عليه وسلم من المشركين.

فإن قلتَ: الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث، فإنه قد صحَّ أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر، ثم بنوح ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، وينتهون إلى محمد صلى الله عليه وسلم، بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء، فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر، قلتُ: هذا تلبيس، فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكرها أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥].

وإنما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أمورًا لا يقدر عليها إلا الله تعالى من عافية المريض، وغيرها، بل أعجب من هذا أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه قد يجعلون له حصة من الولد إن عاش، ويشترون منه

الحمل في بطن أمه ليعيش لهم[١] ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون الأولون.

ولقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبوريون لبعض أهل القبور أنه جاءه إنسان بدراهم، وحلية نسائية، وقال: هذه لسيده فلان - يريد صاحب القبر - نصف مهر ابنتي، لأني زوجتها وكنت ملكت نصف مهرها[٢] فلانًا - يريد صاحب القبر.

وهذه النذور بالأموال، وجعل قسط للقبر، كما يجعلون شيئًا من الزرع يسمونه (تلمًا) في بعض الجهات اليمنية، وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام، وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ [النحل: ٥٦] بلا شك ولا ريب.

نعم استغاثة العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب، حتى يريحهم من هول الموقف، وهذا لا شك في جوازه، أعني طلب دعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض، بل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه لما خرج معتمرًا: "لا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ"[٣]. وأمرنا الله سبحانه أن

---

(١) لفظ "لهم" من خ.

(٢) لفظ "مهرها" من خ.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات،باب: ١١٠، برقم (٣٥٦٢)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء برقم (١٤٩٨).

ندعو للمؤمنين ونستغفر لهم في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] وقد قالت أم سليم رضي الله عنها: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ اللَّهَ لَهُ"[(١)].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون الدعاء منه صلى الله عليه وسلم وهو حي، وهذا أمر متفق على جوازه.

والكلام في طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا أن يشفوا مرضاهم، ويردوا غائبهم، وينفسوا عن حبلاهم، وأن يسقوا زرعهم ويدروا ضروع مواشيهم، ويحفظوها من العين ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها أحد إلا الله تعالى، هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. فكيف يطلب الإنسان من الجماد أو من الحي - الجماد خير منه - لأنه لا تكليف عليه.

وهذا يبين ما فعله المشركون الذين حكى الله ذلك عنهم في قوله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله، برقم (٦٣٤٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، برقم (٢٤٨٠).

تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النحل: ٥٦]. فهؤلاء القبوريون والمعتقدون في جهال الأحياء وضلالهم سلكوا مسالك المشركين حذو القذة بالقذة[1] فاعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله، وجعلوا لهم جزءًا من المال، وقصدوا قبورهم من ديارهم البعيدة للزيارة، وطافوا حول قبورهم، وقاموا خاضعين عند قبورهم، وهتفوا بهم عند الشدائد، ونحروا تقربًا إليهم - وهذه هي أنواع العبادات التي عرفناك.

ولا أدري: هل فيهم من يسجد لهم؟ لا أستبعد أن فيهم من يفعل ذلك.

بل أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده، تعظيمًا له وعبادة ويقسمون بأسمائهم.

بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه، وهكذا كان عباد الأصنام ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥].

---

(١) القذة بضم القاف ريش السهم. والمراد: نهجوا نهجهم.

وفي الحديث الصحيح: "مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ"[١]، وسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلاً يحلف باللات، فأمره أن يقول: "لا إله إلا اللّه".

وهذا يدل على أنه ارتد بالحلف بالصنم، فأمره أن يجدد إسلامه فإنه قد كفر بذلك، كما قررناه في "سبل السلام شرح بلوغ المرام" وفي "منحة الغفار"[٢] فإن قلت: لا سواء، لأن هؤلاء قد قالوا "لا إله إلا اللّه"، وقد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ، فَإِذَا قَالُوها عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا"[٣].

وقال لأسامة بن زيد: "أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ؟"[٤] وهؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، برقم (٢٦٧٩) ومسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير اللّه تعالى، برقم (١٦٤٦).

(٢) ما قرره الصنعاني في هذا الحديث خلاف صنيع البخاري في باب (من حلف بملة سوى ملة الإسلام) من صحيحه فقد قال فيه (وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا اللّه ولم ينسبه إلى الكفر)، ومن المعلوم أن ما يقع من الصحابة في ذلك ليس على سبيل القصد وإنما هو من سبق اللسان فأمر من وقع منهم في ذلك بقول (لا إله إلا اللّه) من باب الكفارة لا من باب تجديد الإسلام..

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (١٣٩٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه، برقم (٢٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، برقم (٤٢٦٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا اللّه، برقم (٩٦).

يصلون ويصومون ويزكون ويحجون؛ بخلاف المشركين.

قلتُ: قال صلى الله عليه وسلم "إِلا بِحَقِّهَا" وحقها: إفراد الإِلهية والعبودية للّٰه تعالى.

والقبوريون لم يفردوا الإِلهية والعبادة، فلم تنفعهم كلمة الشهادة، فإِنها لا تنفع إلا مع التزام معناها، كما لم ينفع اليهود قولها لإِنكارهم بعض الأنبياء.

وكذلك من جعل غير من أرسله اللّٰه نبيًّا، لم تنفعه كلمة الشهادة، ألا ترى أن بني حنيفة كانوا يشهدون أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه، ويصلون ولكنهم قالوا: إن مسيلمة نبي، فقاتلهم الصحابة وسبوهم، فكيف بمن يجعل للولي خاصة الإلهية ويناديه للمهمات؟ وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه حرق أصحاب عبد اللّٰه بن سبأ، وكانوا يقولون: نشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه، ولكنهم غلوا في علي رضي اللّٰه عنه واعتقدوا فيه ما يعتقد القبوريون وأشباههم، فعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحدًا من العصاة، فإِنه حفر لهم الحفائر، وأجَّج لهم نارًا، وألقاهم فيها، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أجججت ناري ودعوت قنبرًا

وقال الشاعر في عصره:

لتَرْمِ بي المنية حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

إذا ما أججوا فيهنّ نارًا رأيت الموت نقدًا غير دين

والقصة في فتح الباري وغيره من كتب الحديث والسير.

وقد وقع إجماع الأمة على أن من أنكر البعث كفر وقتل، ولو قال: لا إله إلا الله، فكيف بمن يجعل لله ندًّا؟

فإن قلت: قد أنكر صلى الله عليه وسلم على أسامة قتله لمن قال "لا إله إلا الله" كما هو معروف في كتب الحديث والسير.

قلت: لا شك أن من قال: لا إله إلا الله من الكفار حقن دمه وماله، حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصة محلِّم بن جثَّامة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء الآية ٩٤] - ، فأمرهم الله تعالى بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد، فإن تبين التزامه لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبين خلافه فلم يحقن دمه وماله بمجرد التلفظ.

وهكذا كل من أظهر التوحيد، وجب الكف عنه إلى أن يبين منه ما يخالف ذلك، فإذا تبين لم تنفعه هذه الكلمة بمجردها، ولذلك لم تنفع اليهود، ولا نفعت الخوارج مع ما انضم إليهم من العبادة التي يحتقر الصحابة عبادتهم إلى جنبها، بل أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهم، وقال: "لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"(١). وذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: " تعرج الملائكة والروح إليه "، برقم (٧٤٣٢)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٤).

لما خالفوا بعض الشريعة، وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء، كما ثبتت به الأحاديث.

فثبت أن مجرد قول[١] كلمة التوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها لارتكابه ما يخالفها من عبادة غير الله.

فإن قلت: القبوريون وغيرهم - من الذين يعتقدون في فسقة الناس وجهالهم من الأحياء - يقولون: نحن لا نعبد هؤلاء، ولا نعبد إلا الله وحده ولا نصلي لهم، ولا نصوم، ولا نحج.

قلتُ: هذا جهل بمعنى العبادة، فإنها ليست منحصرة فيما ذكرتَ، بل رأسها وأساسها الاعتقاد، وقد حصل في قلوبهم ذلك، بل يسمونه معتقدًا ويصنعون له ما سمعته مما تفرع عن الاعتقاد: من دعائهم، وندائهم، والتوسل بهم والاستغاثة والاستعانة، والحلف والنذر وغير ذلك.

وقد ذكر العلماء أن من تزيَّ بزي الكفر صار كافرًا، ومن تكلم بكلمة الكفر صار كافرًا، فكيف بمن بلغ هذه الرتبة اعتقادًا وقولاً وفعلاً؟.

فإن قلت: هذه النذور والنحائر ما حكمها؟

قلتُ: قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها، يسعون في

---

(١) لفظ "قول" من "خ".

جمعها ولو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه، أو دفع ضرر. فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهمًا، فإن الأموال عزيزة عند أهلها، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [محمد: ٣٦، ٣٧].

فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضررًا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ النَّذْرَ لا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ"(١) ويجب رده إليه، وأما القابض للنذر فإنه حرام عليه قبضه؛ لأنه أكل لمال الناذر بالباطل لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ؛ ولأنه تقرير للناذر على شركه وقبح اعتقاده، ورضاه بذلك، ولا يخفى حكم الراضي بالشرك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي؛ ولأنه تدليس على الناذر وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره، فأي تقرير لمنكر أعظم من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، برقم (١٦٣٩)، واللفظ لمسلم.

قبض النذر على الميت؟

وأي تدليس أعظم؟ وأي رضى بالمعصية العظمى[١] أبلغ من هذا؟ وأي تصيير لمنكر معروفًا أعجب من هذا؟ وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب، يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزورًا من ماله، ويقاسمه في غلات أطيانه، ويأتي به إلى سدنة الأصنام، فيقبضونه منه ويوهمونه حقية عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرها بباب بيت[٢] الصنم، وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها ومحوها، وإتلافها، والنهي عنها.

فإن قلتَ: إن الناذر قد يدرك النفع، ودفع الضرر بسبب إخراجه للنذر وبذله!

قلتُ: كذلك الأصنام، قد يدرك منها ما هو أبلغ من هذا، وهو الخطاب من جوفها، والإخبار ببعض ما يكتمه الإنسان، فإن كان هذا دليلاً على حقية القبور وصحة الاعتقاد فيها فليكن دليلاً على حقية الأَصنام، وهذا هدم للإسلام وتشييد لأَركان الأصنام. والتحقيق أن لإبليس وجنوده من الجن والإنس أعظم العناية في إضلال العباد، وقد مكن الله إبليس من الدخول في الأبدان ووسوسة في

---

(١) لفظ "العظمى" من "خ".

(٢) لفظ "بيت" من "خ".

الصدور، والتقام القلب بخرطومه، وكذلك يدخل أجواف الأصنام ويلقي الكلام في أسماع الأقوام، ومثله يصنعه في عقائد أهل القبوريين، فإن الله تعالى قد أذن له أن يجلب بخيله ورجله على بني آدم، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد.

وثبت في الأحاديث "أَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَرِقُ السَّمْعَ بِالأَمْرِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ اللَّهُ، فَيُلْقِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ - وَهُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُونَ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَيَزِيدُونَ فِيمَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِائَةَ كَذْبَةٍ"[(١)]، ويقصد شياطين الجن وشياطين الإنس من سدنة القبور وغيرهم، فيقولون: إن الولي فعل وفعل، يرغبونهم فيه، ويحذرونهم منه، وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك، ويولون العمال لقبض النذور، وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم قاضٍ أو مفت، أو شيخ صوفي، فيتم التدليس لإبليس وتقر عينه بهذا التلبيس.

فإن قلت: هذا أمر عم البلاد، واجتمعت عليه سكان الأغوار والأنجاد، وطبق الأرض شرقًا وغربًا ويمنًا وشامًا وجنوبًا وعدنًا، بحيث لا تجد بلدة من بلاد الإسلام إلا وفيها قبور ومشاهد، وأحياء يعتقدون فيها، ويعظمونها وينذرون لها، ويهتفون بأسمائها ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبور، ويسرجونها، ويلقون عليها الأوراد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢١٠)، ومسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٢٨).

والرياحين، ويلبسونها الثياب ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها، وما في معناها من التعظيم والخضوع والخشوع، والتذلل والافتقار إليها، بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلو من قبر أو قريب منه، أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة يصنعون فيه ما ذكر، أو بعض ما ذكر. ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة، ويسكت عليه علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا.

قلت: إن أردت الإنصاف وتركت متابعة الأسلاف وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم، جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل، فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل، ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل[1] ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته، وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولية أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه، ويرحلون به إلى محل قبره... ويلطخونه بترابه ويجعلونه طائفًا على قبره فينشأ وقد قر في قلبه عظمة ما يعظمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون

---

(١) لفظ "دبير وقبيل" من "خ".

من أحد عليهم من نكير[١].

بل ترى ممن يتسم بالعلم، ويدعي الفضل وينتصب للقضاء أو الفتيا، أو التدريس، أو الولاية، أو المعرفة أو الإمارة، والحكومة معظمًا لما يعظمونه، مكرمًا لما يكرمونه، قابضًا للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن العامة أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر: أن سكوت العالم أو العالم[٢] على وقوع منكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر.

ولنضرب لك مثلا من ذلك وهي هذه المكوس المسماة بالمجابي المعلوم من ضرورة الدين تحريمها، قد ملأت الديار والبقاع وصارت أمرًا مأنوسًا لا يلج إنكارها إلى سمع من الأسماع، وقد امتدت أيدي المكاسيين في أشرف البقاع في مكة أم القرى يقبضون من القاصدين لأداء فريضة الإسلام، ويلقون في البلد الحرام كل فعل حرام، وسكانها من فضلاء الأنام، والعلماء، والحكام ساكتون على الإنكار، معرضون عن الإيراد والإصدار - أفيكون السكوت من العلماء بل من العالم[٣] دليلاً على حل أخذها وإحرازها؟ هذا لا

---

(١) لا شك أن ما يفعله الجهال من ذلك إثم كبير، وضلال بعيد (الناشر).

(٢) لفظ " أو العالم" من "خ".

(٣) لفظ "من العلماء بل من العالم" من "خ".

يقوله من له أدنى إدراك[١].

بل أضرب لك مثلا آخر: هذا حرم الله الذي هو أفضل بقاع الدنيا، بالاتفاق وإجماع العلماء، أحدث فيه بعض ملوك الشراكسة الجهلة الضلال هذه المقامات الأربعة التي فرقت عبادات العباد واشتملت على ما لا يحصيه إلا الله عز وجل من الفساد، وفرقت عبادات المسلمين وصيرتهم كالملل المختلفة في الدين، بدعة قرت بها عين إبليس اللعين، وصيرت المسلمين ضحكة للشياطين، وقد سكت الناس عليها، ووفد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها، وشاهدها كل ذي عينين، وسمع بها كل ذي أذنين، أفهذا السكوت دليل على جوازها؟ هذا لا يقوله من له إلمام بشيء من المعارف[٢] كذلك سكوتهم على هذه الأشياء الصادرة من القبوريين.

---

(١) ونص الغزالي في الإحياء على حرمة مثل هذه المكوس والإثم الشديد على آخذها.

(٢) مقتضى هذا أن العلماء لم يستنكروا هذا وهو خلاف الواقع، فقد قال العلامة قطب الدين الحنفي (في الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) أن تعدد المقامات في مسجد واحد لاستقلال كل مذهب بإمام ما أجازه كثير من العلماء. وأن تعدد المقامات في وقت حدوثه أنكره العلماء غاية الإنكار، ولهم في ذلك العصر رسالات متعددة باقية بأيدي الناس إلى الآن، وأن علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطأوا من قال بجوازه" اهـ.

وأما إنكار المؤلف لهذا الصنيع فلا شك في وجاهته وقد برأ به ذمته كما برئت ذمة من سبقه من العلماء. وقد حصل بفضل الله ما تمنوه بعد تولي الحكومة السعودية حفظها الله خدمة الحرمين، فقد أزالت هذه المقامات وجمعت المسلمين على إمام واحد في الصلاة، وفي هذا تنبيه على أن ما يسجله الدعاة من الحق إن لم ينتفع به معاصروهم فيستنفع به من وفقه الله ممن يأتي من بعدهم والله المستعان.

فإن قلت: يلزم من هذا أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة، حيث سكتت عن إنكارها لأعظم جهالة؟!.

قلت: حقيقة الإجماع: اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمر بعد عصره، وفقهاء المذاهب الأربعة يحيلون الاجتهاد من بعد الأربعة[1] وإن كان هذا قولاً باطلاً وكلامًا لا يقوله إلا من كان للحقائق جاهلاً، فعلى زعمهم: لا إجماع أبدًا من بعد الأئمة الأربعة، فلا يرد السؤال، فإن هذا الابتداع والفتنة بالقبور لم يكن على عهد أئمة المذاهب الأربعة.

وعلى ما نحققه: فالإجماع وقوعه محال. فإن الأمة المحمدية قد ملأت الآفاق، وصارت في كل أرض وتحت كل نجم، فعلماؤها المحققون لا ينحصرون ولا يتم لأحد معرفة أحوالهم، فمن ادعى الإجماع بعد انتشار الدين، وكثرة علماء المسلمين، فإنها دعوى كاذبة، كما قاله أئمة التحقيق.

ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه، بل سكتوا عن إنكاره لما دل سكوتهم على جوازه، فإنه قد علم من قواعد الشريعة

(١) إحالة الاجتهاد من بعد الأئمة الأربعة ليس إلا قول بعض المنتسبين إلى هذه المذاهب من المتأخرين وقد اعتبر السيوطي ذلك القول منهم جهلا، وألف في الرد عليه (كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، وقد سرد نصوص فقهاء المذاهب الأربعة المعتبرين على خلاف ما ذكره الصنعاني هنا. اهـ.

أن وظائف الإِنكار ثلاثة.

أولها: الإِنكار باليد، وذلك بتغيير المنكر وإزالته.

وثانيها: الإِنكار باللسان مع عدم استطاعة التغيير باليد.

ثالثها: الإِنكار بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان، فإِن انتفى أحدها لم ينتفِ الآخر.

ومثاله: مرور فرد من أفراد علماء الدين بأحد المكاسين وهو يأخذ أموال المظلومين. فهذا الفرد من علماء الدين لا يستطيع التغيير على هذا الذي يأخذ أموال المساكين باليد ولا باللسان؛ لأنه إنما يكون سخرية لأهل العصيان، فانتفى شرط الإِنكار بالوظيفتين، ولم يبق إلا الإِنكار بالقلب الذي هو أضعف الإِيمان.

فيجب على من رأى ذلك العالم ساكتًا على الإِنكار مع مشاهدة ما يأخذه ذلك الجبار أن يعتقد أنه تعذر عليه الإنكار باليد واللسان، وأنه قد أنكر بقلبه، فإِن حسن الظن بالمسلمين أهل الدين واجب والتأويل لهم ما أمكن ضربة لازب، فالداخلون إلى الحرم الشريف والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية التي فرقت شمل[1] الدين وشتتت صلوات المسلمين، معذورون عن الإنكار إلا بالقلب، كالمارين على المكاسين وعلى القبوريين.

(١) لفظ "شمل" من "خ" ووقع بدله في المطبوعة "كلمة".

ومن هنا يعلم اختلال ما استمر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه بالإجماع[١] أنه وقع ولم ينكر، فكان إجماعًا.

ووجه اختلاله أن قولهم "ولم ينكر" رجم بالغيب، فإنه قد يكون أنكرته قلوب كثيرة تعذر عليها الإنكار باليد واللسان، وأنت تشاهد في زمانك، أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك، وأنت منكر له بقلبك ويقول الجاهل إذا رآك تشاهده: سكت فلان عن الإنكار، يقوله إما لائمًا أو متأسيًا بسكوته، فالسكوت لا يستدل به عارف وكذا يعلم اختلال قولهم في الاستدلال، فعلَ فلان كذا، وسكت الباقون فكان إجماعًا مختلاً من جهتين:

الأولى: دعوى أن سكوت الباقين تقرير لفعل فلان، لما عرفت من عدم دلالة السكوت على التقرير.

الثانية: قولهم: "فكان إجماعا" فإن الإجماع اتفاق مجتهدي[٢] أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والساكت لا ينسب إليه وفاق، ولا خلاف حتى يعرب عنه لسانه.

قال بعض الملوك - وقد أثنى الحاضرون على شخص من عماله وفيهم رجل ساكت - ما لك لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلمت

---

(١) قوله "بالإجماع" من "خ".

(٢) لفظ "مجتهدي" من "خ".

خالفتهم.

فما كل سكوت رضى، فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه، وقلمه وأعراضهم تحت قوله وكلمه، فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفعه عما أراد.

فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك، والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام، وخراب بنيانه، غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير، أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجدو قبرًا قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع وفرش بالفراش الفاخر وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو لدفع ضر، ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل وأنزل بفلان الضرر، وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور، وكتب عليها وبنى عليها، وأحاديث ذلك واسعة معروفة، فإن ذلك في نفسه منهي عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة.

فإن قلت: هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها الأموال.

قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه صلى الله عليه وسلم ولا من أصحابه ولا من تابعيهم ولا تابعي التابعين، ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره صلى الله عليه وسلم من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي، المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في (تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة)[1] فهذه أمور دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخر الأول.

وهذا آخر ما أردناه مما أوردناه لما عمت البلوى، واتبعت الأهواء وأعرض العلماء عن النكير الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامة إليه، وصار المنكر معروفاً والمعروف منكرًا، ولم نجد من الأعيان ناهيًا عن ذلك ولا زاجرًا.

فإن قلت: قد يتفق للأحياء، أو للأموات اتصال جماعة بهم يفعلون خوارق من الأفعال يتسمون بالمجاذيب، فما حكم ما يأتون به من تلك الأمور فإنها مما جلبت القلوب إلى الاعتقاد بها؟.

---

(١) للعلامة زين الدين أبي بكر بن الحسين بن عمر أبي الفخر المراغي المتوفى سنة ٨١٦. والمشهور: أن اسمه كنيته، وقيل: اسمه عبد الله وله ترجمة طويلة في الضوء اللامع للمؤرخ الناقد السخاوي.

قلتُ: أما المتسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، ويقولونها بألسنتهم ويخرجونها عن لفظها العربي: فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حمر الكون الذين ألبستهم الشياطين حلل التلبيس والتزيين، فإن إطلاق الجلالة منفردًا عن أخبار عنها بقولهم (اللّه اللّه) ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف(١) بإخراجه عن لفظه العربي، ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني، ولو أن رجلاً عظيمًا صالحًا يسمى بزيد، وصار جماعة يقولون: (زيد زيد) لعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر هل أتى في لفظة من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ أو الذي في الكتاب والسنة هو طلب الذكر، والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأدعيته، وأدعية آله، وأصحابه خالية عن هذا الشهيق والنهيق والنعيق الذي اعتاده من هو عن اللّه وعن هدي رسول اللّه صلى اللّه

---

(١) حاول بعض المتأخرين الاستدلال لهذا الصنيع بقول اللّه تعالى: (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) إلى قوله: (قل اللّه ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وقال: معنى قوله (قل اللّه) لا يكون خطابك لهم إلا هَذّ الكلمة كلمة (اللّه) وقد رد عليه الحافظ ابن كثير في تفسيره بقوله (وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرا بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب إفادة يحسن السكوت عليها.

عليه وسلم وسمته، ودله في مكان سحيق، ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى، مثل (ابن علوان) و (أحمد بن الحسين) و(عبدالقادر) و(العيدروس)، بل قد انتهى الحال إلى أنهم يفرون إلى أهل القبور من الظلم والجور، كعلي رومان وعلي الأحمر، وأشباههما، وقد صان الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأهل الكساء وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال، فيجمعون أنواعًا من الجهل والشرك والكفر.

فإن قلت: إنه قد يتفق من هؤلاء الذين يلوكون الجلالة، ويضيفون إليها أهل الخلاعة والبطالة، خوارق عادات وأمورًا تظن كرامات، كطعن أنفسهم بالآلات الحادة، وحملهم لمثل الحنش والحية والعقرب وأكلهم النار، ومسهم إياها بالأيدي وتقلبهم فيها بالأجسام.

قلت: هذه أحوال شيطانية. وإنك لملبس عليك إن ظننتها كرامات للأموات، أو حسنات للأحياء لما هتف هذا الضال بأسمائهم وجعلهم أندادًا وشركاء لله تعالى في الخلق والأمر، فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء الله تعالى، فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب أو السالك شريكًا له تعالى وندًا؟ إن زعمت ذلك فقد جئت شيئًا إدًّا، وصيرت هؤلاء الأموات مشركين، وأخرجتهم - وحاشاهم عن ذلك - عن دائرة الإسلام والدين، حيث جعلتهم أندادًا لله راضين فرحين، وزعمت أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضلال المشركين التابعين

لكل باطل، المنغمسين في بحار الرذائل، الذين لا يسجدون لله سجدة ولا يذكرون الله وحده، فإن زعمت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين الكافرين وللمجانين، وهدمت بذلك ضوابط الإسلام، وقواعد الدين المبين والشرع المتين.

وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين علمت أن هذه أحوال شيطانية وأفعال طاغوتية، وأعمال إبليسية يفعلها الشياطين لإخوانهم من هؤلاء الضالين، معاونة من الفريقين على إغواء العباد.

وقد ثبت في الأحاديث أن الشياطين، والجان يتشكلون بأشكال الحية والثعبان، وهذا أمر مقطوع بوقوعه، فهم الثعابين التي يشاهدها الإنسان في أيدي المجاذيب.

وقد يكون ذلك من باب السحر، وهو أنواع وتعلمه ليس بالعسير، بل بابه الأعظم: هو الكفر بالله وإهانة ما عظمه الله من جعل مصحف في كنيف ونحوه، فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق، فإن للسحر تأثيرًا عظيمًا في الأفعال، وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها، وقد ملأ سحرة فرعون الوادي بالثعابين، والحيات حتى أوجس في نفسه خيفة موسى عليه السلام.

وقد وصفه الله بأنه سحر عظيم، والسحر يفعل أعظم من هذا فإنه قد ذكر ابن بطوطة وغيره أنه شاهد في بلاد الهند قومًا توقد

لهم النار العظيمة فيلبسون الثياب الرقيقة، ويخوضون في تلك النار، ويخرجون وثيابهم كأنها لم يمسها شيء.

بل ذكر أنه رأى إنسانًا عند بعض ملوك الهند أتى بولدين معه ثم قطعهما عضوًا عضوًا، ثم رمى بكل عضو إلى جهة فرقًا.

حتى لم ير أحد شيئًا من تلك الأعضاء، ثم صاح وبكى، فلم يشعر الحاضرون إلا وقد نزل كل عضو على انفراده، وانضم إلى الآخر حتى قام كل واحد منهما على عادته حيًّا سويًّا، ذكر هذا في رحلته، وهي رحلة بسيطة وقد اختصرت، طالعتها بمكة عام ستة وثلاثين ومائة وألف، وأملاها علينا العلامة مفتي الحنفية في المدينة السيد محمد بن أسعد رحمه الله.

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[١] بسنده: أن ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة فجعل يدخل في جوف بقرة ويخرج، فرآه جندب رضي الله عنه، فذهب إلى بيته فاشتمل على سيفه، فلما دخل الساحر في

---

(١) هو علي بن الحسين الأصفهاني الأموي صاحب كتاب الأغاني شيعي، وهذا نادر في أموي كذا ذكر الذهبي في (ميزان الاعتدال) ثم قال: وكان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات يأتي بأعاجيب حدثنا وأخبرنا وكان طلبه في حدود الثلاثمائة، فكتب ما لا يوصف كثرة حتى لقد اتهم، والظاهر أنه صدوق وقد قال أبو الفتح بن أبي الفوارس (خلط قبل موته) وأطال الذهبي في ترجمته. ا هـ.

البقرة قال جندب: أَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ ثم ضرب وسط البقرة فقطعها وقطع الساحر معها، فانذعر الناس، فحبسه الوليد وكتب بذلك إلى عثمان رضي الله عنه، كان على السجن رجل نصراني، فلما رأى جندبًا يقوم الليل ويصبح صائمًا، قال النصراني: والله إن قومًا هذا شرهم لقوم صدق، فوكل بالسجن رجلاً ودخل الكوفة، فسأل عن أفضل أهلها فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه فرأى أبا محمد - يعني الأشعث - ينام الليل. ويصبح فيدعو بغدائه، فخرج من عنده وسأل: أي أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا: جرير بن عبد الله، فوجده ينام الليل، ثم يصبح فيدعو بغدائه، فاستقبل القبلة فقال: ربي رب جندب، وديني دين جندب، وأسلم. وأخرجها البيهقي[1] في السنن الكبرى بمغايرة في القصة، فذكر بسنده إلى أبي الأسود[2] أن الوليد بن عقبة كان بالعراق يلعب بين يديه ساحر، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به، فيقوم صارخًا فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الحافظ بلغت تصانيفه ألف جزء وقد نفع الله المسلمين بها شرقًا وغربًا لإمامة الرجل ودينه وفضله وإتقانه، توفي عاشر جمادى الأولى بنيسابور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. ا.هـ. ملخصًا في خبر من غبر للحافظ الذهبي.

(٢) وهو "أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو وثنا أبو العباس الأصم ثنا بحر بن نضر ثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي الأسود.

الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه! فأمر به الوليد دينارًا صاحب السجن فسجنه[1] انتهى.

بل أعجب من هذا ما أخرجه الحافظ البيهقي بإسناده في قصة طويلة، وفيها أن امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت، وأنها أخذت قمحًا فقالت له - بعد أن ألقته قالت له: اختبز فاختبز، وكانت لا تريد شيئًا إلا كان[2].

والأحوال الشيطانية لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدجال، والمعيار اتباع الكتاب والسنة ومخالفتهما. انتهى ما أوردناه ولله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا[3] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) كذا في الأصل وعبارة البيهقي ج٨ ص١٣٦ " وأمر به الوليد دينارًا صاحب السجن وكان رجلاً صالحًا فسجنه فأعجبه نحو الرجل قال: أفتستطيع أن تهرب؟ قال: نعم، قال: فاخرج "لا يسألني الله عنك أبدًا" ا هـ.

(٢) روى البيهقي تلك القصة الطويلة المشار إليها في (باب قبول توبة الساحر وحقن دمه) من السنن الكبرى.

(٣) لفظ "وظاهرًا وباطنًا" من "خ".

تم الكتاب والحمد لله

وقد قوبل على نسخة خطية ضمن مجموعة تحتوي على كتب قيمة وهي من مكتبة سماحة مفتي الديار السعودية ورئيس قضاتها العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى، والنسخة المذكورة محفوظة في مكتبة الرياض السعودية برقم ٣٠٧ - ٨٦.

وقد قام بتلك المقابلة وبالتصحيح والتعليق إسماعيل بن محمد الأنصاري - رحمه الله - وإلى المخطوطة المذكورة يرمز في بعض تعليقاته بحرف "خ".

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
الأصل الأول كل ما في القرآن حق	٥
الأصل الثاني الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله	٥
الأصل الثالث الأقسام التوحيد	٦
الأصل الرابع المشركون مقرون أن الله خالقهم إلخ	٨
الأصل الخامس أساس العبادة توحيد الله	١٠
أنواع العبادة	١١
الرسل مبعوثون للدعوة إلى إفراد الله بالعبادة	١٢
الإقرار بالله لا يكفي في التوحيد مع الشرك في العبادة	١٧
الاعتقاد في غير الله في النفع والضر شرك	٢٠
طلب الدعاء من الحي غير الطلب من الميت	٢١
الأسماء لا تغير المعاني	٢١
تسمية القبر مشهدا لا تخرجه عن اسم الصنم	٢٢
محاجة مع من يذكر اسم الله في الذبح عند القبر	٢٤

الجهل بلغ بالمشركين حتى اعتقدوا في الفسقة ٢٤

عودة إلى بحث الطلب من الحي والميت بتفصيل ٢٩

من حلف بغير الله هل يكون مرتدا أم لا ٣١

حكم النذور والنحائر للقبور ٣٥

بحث فيما يحصل للمشركين من تضليل الشيطان وجنوده من الجن والإنس وطاعة العامة لهم بسبب ما يوسوسون به ٣٧

من البلاء العظيم أكل العلماء للسحت من النذور والنحائر على القبور وسكوتهم على إنكاء المنكر ٣٩

أمثلة لمنكرات عمت البلوى بها واضطر العلماء للسكوت عنها مما تقر به عين إبليس وجنوده ٤١

سكوت العالم عن الإنكار لا يصلح حجة على الجواز لأن المنكرات قد يحميها من بيده السلطة ٤٤

حكم من يحصل له خوارق من الأفعال حيا أو ميتا وحكم ما يعمل من الأذكار المبتدعة والأحوال الشيطانية بإيضاح وتفصيل وإلحاق بعضه بالسحر ٤٧